تحقيق

عبر التاريخ، لعبت الأبواب دور الدفاع عن المدن. وكانت كثرتها في المدينة الواحدة مؤشراً على تطوّرها العمراني واستتباب الأمن فيها واستقرارها وازدهار تجارتها. وهي كانت، قديماً، تُغلق مساءً وتُفتح فجراً، لرغبة السلطة في تنظيم الدخول إلى ما خلف السور والخروج منها حفظاً للأمن. بناءً عليه، لم يكن ممكناً، ولا منطقياً، فصل الأبواب عن الأسوار، وإلا انتفت وظيفة الاثنين معاً. اندثرت أبواب المدن مع انتهاء هندسة المدينة التقليدية وتعطّل الوظائف الدفاعيّة والوقائية للأبواب والأسوار التي تجاوزها الزمن... إلا في بعض بلديات لبنان، حيث تنتصب، على مداخل بعض المدن والبلدات، «بوابات» و«أقواس نصر» هزيلة، من دون أي وظيفة بصرية أو جمالية

«باب الحارة» على مدخل بلدة شمسطار (رامح حمية)

هزال وارتجال... بلا ذائقة فنية

مدن سجينة خلف بوابات هجينة

محمد نزال

أي «عقل» ذاك الذي قرّر «حبس» مدينة كبعلبك خلف «بوابة» على مدخلها الجنوبي؟ مدينة الإرث الإنساني الموغلة في القدم والعراقة محكوم على زائرها أن يدخلها من تحت قوس حجري حديث، كئيب ومرتجل! لِمَ أُقيم في تلك النقطة تحديداً؟ لا أحد يَعلم. بوابات المدن القديمة، كالقدس ودمشق ومراكش وغيرها، معروفة منذ قرون. ويُحافَظ عليها كإرث حضاري... لكن أن يُقام شيء مِن لا شيء، وبنحو مسيء، فهذا مما يبعث على السخرية المرّة. مدينة كهذه، من بديهيات عمل سلطتها المحلية، أن تمنع وضع «حجر على حجر» فيها إلا بعد دراسة متأنّية. ولكن يبدو أن الحفاظ على التاريخ أهم من أن يُترك لسلطات محلية يغيب عنها أصحاب الاختصاص والرؤى.

في الطريق إلى مدينة الهرمل، في أقصى البقاع الشمالي، يمكن الزائر التمتع بطبيعة صحراوية تشبه تلك التي نشاهدها في أفلام الـ «وسترن» الأميركية. هنا، أيضاً، هناك من قرّر «إلزام» الناس بالمرور من تحت «قوس نصر» يبدو، رغم ضخامته، هزيلاً إذا ما قورن باتساع الأفق حوله. «عقل» آخر قرّر أن «يسجن» بلدة شمسطار البقاعية خلف «بوابة»، مستلهماً «هندستها» من المسلسل الشامي «باب الحارة». قرية رابعة بنت بلديّتها، عند مدخلها، «شيئاً» على شكل قلعة على الطراز المعماري للحقبة الصليبيّة. لِم هذا الطراز أساساً؟ لا أحد يَعلم. على الأرجح، أن أحد المعنيين رآه في صورة ما. بلدة مكسة، على طريق شتورا الدولية، قررت بلديتها،

مدخلا مدينة الهرمل (فوق) وبلدة بوداي (الأخبار)

> **مدينة كبعلبك، من بديهيات عمل سلطتها المحلية أن تمنع وضع «حجر على حجر» فيها إلا بعد دراسة متأنّية**

هي الأخرى، نصب قوس حجري أشبه ما يكون بتلك التي يبنيها ميسورو القرى على بوابات منازلهم.

من يقرّر ذلك؟ يكفي أن تخطر الفكرة في بال عضو بلديّة، فيتفاعل عضو آخر معها، مع بعض الضجيج، ثمّ يولد «المشروع» الذي يكلف غالباً مئات آلاف الدولارات.

ماذا عن الخصوصيّات العمرانيّة والثقافيّة؟ يضحك مهندس كان عضواً في بلدية إحدى البلدات، ويسأل: «مِن أيّ خلفيّة ثقافيّة، أصلاً، يأتي رؤساء البلديّات والأعضاء؟ أيّ بلديّة لديها هذا الاهتمام أو الإلمام؟».

هذه «الأشياء» التي غزت، على مدى العقد الماضي، مداخل كثير مِن القرى اللبنانية، خصوصاً في الجنوب والبقاع، «سيّئة ومُسيئة». يقولها، بوضوح، المعمار رهيف فياض. وهو، لمن لا يعرفه، ممن لا يُجيدون «هندسة التبخير». ويوضح: «في الجنوب والبقاع هناك ذاكرة تتحدّث عن النصر. المطلوب أن يبقى الناس متعلّقين بالمقاومة، وهي الرائدة عربيّاً، إنّما أسلوب التعبير عن ذلك بهذه الأشغال، مِن الناحية الجماليّة، فضلاً عن جوانب أخرى، سيئ جداً».

ويلفت إلى أن أصل هذه الفكرة جاء مِن الفتوحات في زمن الإغريق والرومان والفرس وغيرهم، وبالتالي أقواس النصر مرتبطة بسياقات تاريخية وجغرافيّة محدّدة. «القيمة في الهندسة الكلاسيكيّة الماضية كانت جماليّة. أما الآن، عندنا، فهي ارتجال شعبي من أشخاص ليست لديهم أيّ